زكي

كلمة
علي رياض باشا
وصفحة من تاريخ مصر الحديث
تتضمن خلاصة حياته

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

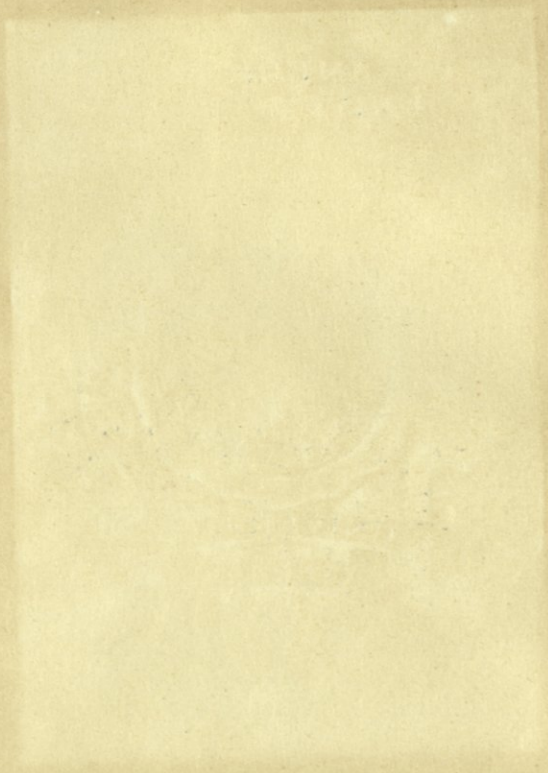

تجليد صالح الدقو
تلفون ٢٢٢٩٧٧

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

ARIZONA UNIVERSITY
LIBRARY

LIBRARY

رياض باشا

من أكبر رجالات مصر المعدودين

توفى الى رحمة الله يوم السبت ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٢٩ (١٧ يونيه سنة ١٩١١)

بمدينة الاسكندريه

923.2
M991kA
C.1

كلمـــــة

على

رياض باشـا

وصفحـــة

من تاريخ مصر الحديث تتضمن خلاصة حياته

لأحمد زكى باشا

سكرتير مجلس النظـار
ووكيل الجمعية الجغرافية الخديوية
وأحد أعضاء المجمع العلمى المصرى

وما ضرَّنى أن قال أخطأت جاهلٌ
إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

المطبعة الأميرية بمصر
١٩١١

كلمـــة (١)

على

رياض باشـــا

عُظماء الرجال هم الأمثلة الحية لمعانى الإنسانية .

فالحكمة ، والشجاعة ، والبلاغة واستنباط العلوم ، واختراع الآلات وتدبير المال ، وقيادة الجند ، وسياسة الملك : كلُّ هذه معانٍ للإنسانية العامة تتقاسمها الأناسىّ تقاسمًا متفاوتًا حتى تفنى فى بعضهم ؛ ولكن هذه المعانى السامية قد نراها مُكَبَّرَة ، مُعظَّمة ، مُجَسَّمَة حتى نكاد نبصرها بالعين ونَلمَسها باليد فى عظماء الرجال : من الفيلسوف ، والشجاع ، والكاتب ، والعالم ، والمخترع ، والاقتصادىّ ، والقائد ، ومدبر أمور الجمهور .

أولئك الذين يظهرون فى الوجود فى أزمان متباينة وفى أقطار متنائية . أولئك الذين يُلقون على أُممهم المغتبطة بهم دروسا عالية فى الإنسانية الفاضلة ، دروسا واضحة جليّة فيجدّدون ما اندرس فيها من معانى الانسانية ، أو يكملونها فيهم إن كانت ناقصة ، أو يُظهرونها للعالَم على أيديهم إن لم يكن قد سمح بها الزمان

بمقدار نبوغ العظماء فى كل أمة ، قِلةً وكثرة ، تكوّن منزلتها بين الشعوب رفعةً وانحطاطا . بل على قدر وجودهم فى الدنيا تكون عظمة العالَم وتقدّمه فى مضمار الحضارة والعرفان .

---

(١) ألقيت فى الحفلة الرسمية التى أقامها المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية فى صباح الاربعاء ٦ محرم سنة ١٣٣٠ (٢٧ ديسمبر سنة ١٩١١)

أفلا ترون العالَم الراقى مدينا فى أخلاقه وحكومته ونظامه وصناعته وتجارته وأسباب رفاهيته إلى أفراد قلائل فى الخلائق ؟ قد كانت أفكارهم الثاقبة لِقاحا للعقول، وأعمالهم الخصبية بذورا صالحة وأغراسا مباركة لفائدة المجموع .

تلك المعانى الشريفة وتلك القوى الباهرة التى تتجلَّى على الناس من حين إلى حين فى صُوَر أشخاصٍ عظام. وهى إنما تكون كامنة فى النفوس المستعدّة لهذا الفيض كُمونَ الكهرباء فى بعض الأجسام. فكما أن الدلك والحك يثيران الكهرباء، فكذلك تلك المعانى وتلك القوى يثيرها فى بعض النفوس عاملان مؤثران :

أولهما — تدوين سير هؤلاء الأعلام النبلاء وبيان الخُطة التى ساروا عليها، فكانت سبب نجاحهم فى الدنيا . لاجَرَمَ حينئذ أن من يأنس من نفسه القدرة على تحدِّيهم أو اللحاق بهم يسعى فيحاكيهم أو يربو عليهم، أو يتم عملهم إن كان قد أُوتِىَ حظا من نصيبهم .

وثانيهما — إعراب المتمتعين بثمرات أولئك الأعيان عن شكرهم فى السرّ والعلن، لصنيعهم الحسن، فى خدمة الأمة والوطن . والاقرار بالفضل بعد الموت آثر عند الله والناس منه فى حالة الحياة

وليس من دليل على الوفاء لهم بعد وفاتهم أكثر أثرا وأحسن وقعا من تجديد ذكراهم وتمجيد آثارهم . فلعمرى إن هذا الصنيع لفوق احاطته بفضيلة الوفاء — وإن كانت قليلة فى طباع الناس — لمما يحيي فكرة النبوغ فى نفوس المستعدّين، لاسيما إذا كان العظيم عصاميا . وجل العظماء عصاميون .

وإننا اليوم باجتماعنا معاشر أعضاء المجمع العلمى المصرىّ والجمعية الجغرافية الخديوية لتأبين فقيد مصر العظيم رياض باشا نفى باحدى الحُسْنَيَيْن . فنحن

نجاهر على رؤوس الأشهاد وفى هـذا الجمع الحـافل الموقر بأعترافنا الجميل، لذلك الراحل الجليل، الذى بكاه النيل وأبناء النيل .

أما تدوين سيرته الذكية الزاكية، وشرح أعمـاله العائدة بالفـائدة على مصر الذاكية الذاكرة، فهو متروكٌ لرجال التاريخ، وهـم خير كفيل بحفظه وتوريثه لمن يخلفنا من الأجيال الآتية، ليكون نبراسا للبحث والتفكير والعمل . وقد سبق لهذا العاجز قيامه ببعض هذا الواجب [1] على ضريح الفقيد نضَّره الله بالرَّوْح والرَّيْحان !

كلُّ الحاضرين (والمتكلم الضعيف فى جملتهم) وجميع الغائبين (وأهل مصر بعض منهم) يشهدون بأن رياضا كان فى بابه من نوابغ مصر والشرق فى هذا العصر .

ومن ذا الذى ينكر أن نبوغ رياض لم يقف عنـد حدّ تدبير الملك وسياسة البلاد، حتى تعدّاه الى كثير من الفضائل القومية والمزايا الانسانية التى قلّما تجتمع فى شخص مفرد . وليس ذلك على الله بمستنكر

فالرجل، كما هو معدود فى طليعة الساسيين والمديرين، كذلك كان فى مقدمة الهداة والمصلحين . وكما هو فى عداد نوابغ الإداريين الحازمين، فقد انتظم فى سلك أكابر المشرعين والمقننين . وبينما يحلم قومٌ فى زمرة الاقتصاديين الماليين، يرفعه آخرون إلى مكانة العاملين المجدّين والمنظمين المجيدين . هذا إلى أدب بارع، وقول حكيم، وكرم حاتمىّ، ورحمة لاتتناهى .

تلكم الصفات العالية والأخلاق الراضية عرفناها فى رياض، وتجلّت بأبهى مظاهرها على الجيل الماضى والجيل الحاضر . وهانحن نجتلى كل يوم آثارها الخالدة بين ظَهْرَانَيْنا فى ربوع مصر، وطننا العزيز: مابين وضع نظامات إدارية،

---

(١) أنظر نص هذه الخطبة فيما يلى من الاوراق

وتشريع قوانين أهلية ، وتأييد معاهد علمية ، وتعضيد صحافة عربية ، وتنشيط صناعة وطنية ، ومؤاساة ملاجئ خيرية ، وتفقد أندية أدبية .

كان المجمع العلمى المصرىّ والجمعية الجغرافية الخديوية ممن فاز بكثير من نفحات رياض ونال قسطا كبيرا من تلك الأيادى البيضاء التى لاينساها ولن ينساها الأعضاء ، مابقيت محبة الرجل راسخة فى قلوبهم : وهى راسخة ماجاش فيهم خاطر أو تحرّك لهم لسان !

فلقد طالما عضدهما ومهد السبيل أمامهما : بجاهه ورأيه ، وبلسانه وبنانه! وكم له فيهما — رغم أعماله السياسية والإدارية الكثيرة — من موقف صدق جلّى فيه غامضا وأزاح باطلا ، وأيد حقا وحيا مستكشفا ، وعزّز باحثا وأبّن ميتا !

وما ننس لاننس موقفه المشهور المشهود فى إحدى حفلاتنا الفريدة (٥ يناير سنة ١٨٧٨) وهو يحيّي بطل إفريقية العظيم ، وأعنى به ستانلى الرحالة الشهير ، الكاشف لمجاهل السودان ، والسالك للبقعة التى كنا نسميها بالمجهولة قبل الآن ، وفاتح أبواب القارة السوداء لروّاد المدنية وطلاب التوسع فى العمران . فكان رياض أوّل عظيم حيّا ذلك العظيم ، بل كان أوّل نائب عن أهل المدنية فى الترحيب بذلك الضيف القادم من تلك الفيافى الموحشة التى يأنس فيها الإنسان للوحش العادِى ، ويفزع إذا لقيه الإنسان العادِىّ ، ولسان حاله يردّدِ قول الاحيمر السعدىّ :

عوىٰ الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عوىٰ * وصوّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

فكما رحّب أهل الشرق فى شخص رياض بأبناء الغرب فى شخص ستانلى ، كذلك كان رياض نقطة الاتصال بين المصريين والإفرنج عند ظهور المحاكم المختلطة بمصر . فقد مضى الآن خمسة وثلاثون عاما ، إلا ثلاثة أيام بالتمام ، على

تلك الحفلة التى وقف رياضنا فيها خطيبا بآسم الحكومة المصرية، معلنًا فى أوّل يناير سنة ١٨٧٦ بآفتتاح محكمة الآستئناف والمحكمة الآبتدائية المختلطتين فى مدينة الاسكندرية ، بلفظ وجيز باللغة الفرنسية ، هذا تعريبه حسبما ورد فى الوقائع المصرية :

« ياسادتى إنى أفتخر برياستى هذه بتأديتى فى هذا اليوم رسم آفتتاح »
« المحاكم الجديدة التى بكم هيئتها المجتمعة . فأنتم مدعوّون للتعاون على إجراء »
« هذا الأثر الجليل المقدار الذى يفتح عصرا جديدا بالنسبة للتأسيسات »
« المصرية العدلية . وحيث إن إجراءه ونجاحه محوّل عليكم لأرتاب فى أن »
« إقداماتكم ومساعيكم تكون مصروفة الى أعلى مقصد مرغوب . وها أنا »
« أعلن فيكم رسميا آفتتاح تلك المحاكم . »

وإذا أرجعنا البصر كرّة أُخرى إلى المجمع العلمى المصرىّ نرى رياضا صاحب الفضل فى تخصيص الدار التى لايزال هذا المجمع يعقد جلساته فيها إلى اليوم . وهى الكائنة فى السرادق البحرى الغربى من مجموعة المبانى التى تجمعنا وإياكم الآن، وهى تقيم فى معظمها نظارة الأشغال العمومية .

كان ذلك فى سنة ١٨٨٠ حينما كانت مقاليد نظارة الداخلية بيد رياض وكانت تلك البقعة تعرف فى ذلك الوقت باسم مدرسة بنات الأمراء . ولقد أعرب فى كتابه الفرنسى المؤرّخ فى ٤ فبراير نمرة ٥٦٤ عن مزيد سروره من تمكنه من مساعدة المجمع العلمى بهذه المنحة الباقية إلى عهدنا هذا . وقد كان مقرّ هذا المجمع بمدينة الاسكندرية قبل ذلك اليوم . وبهذه المناسبة توجّه وفد من زملائنا السابقين إلى نظارة الداخلية ليشكروا زميلهم الوزير .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن انتظام رياض فى سلك هذا المجمع كان فى ١٤ يونيو سنة ١٨٧٤ .

ولم تقتصر خدمة رياض للعلم وأهله على هاتين الجمعيتين ، بل قد امتاز بتعضيد الصحافة العربية على اختلاف المشارب والغايات . وحسبى أن أقول (ولا يستطيع معترف بالجميل أن ينكر على قولى) إنه لولا رياض ، لما كان للجرائد السياسية والمجلات العلمية هذا الصوت العالى الذى تتجاوب أصداؤه فى مشارق البلاد ومغاربها

سَلُوا من سبقوه إلى عالم الهنا ، فهم الشهود العدول . سلوا محمدا عبده وأديبا إسحاق ، وسائلوا عبد الله النديم وسليما النقاش ، واستخبروا إبراهيم المويلحى وسليما تقلا والسيد وفا زغلول وبشاره تقلا . بل عليكم بأبى السعود وأمين شميل ، وابراهيم اللقانى ، وجرجس ميلاد . فان لم يجيبوكم حِوارا أجابوكم اعتبارا . وكيف لا ؟ وقد تركوا بين أيدينا من أياديه مآثر وآثارا . بل هؤلاء الأحياء وهم كثير ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

على أن هذه العناية لم تقتصر على أهل الصحافة . فقد كان رياض وسيع الجناب لأهل التأليف والنشر والترجمة .

وماذا أذكر وماذا أترك ؟ فالمجال فسيح ولكن الوقت يضيق عن سرد الأسماء ، فأكتفى بالاشارة الى بيت البستانى . وقد جرت العادة بأن البستانى هو الذى يوالى الرياض ، ولكن رياضنا هو الذى أولى البستانى نفحات تتلوها نفحات .

أفراد هذا البيت — وكلهم أفراد — لايزالون يرطبون ألسنتهم بمديح رياض ، ويشكرون إحياءه لهم وإعلاءه ذكرهم وتنويهه بقدرهم ، لأنه هو الذى كانت له

المأثرة الأولى واليد الطولى فى ظهور ذلك السفر الحافل الذى تفتخر به اللغة العربية فى العصر الحديث : أعنى به دائرة المعارف التى هى آية الفخر لعميدهم الجليل ، المعلم بطرس البستانى ولبقية أهل بيته من بعده .

فهل يقوم بعد رياض من يكمل عمل رياض مع دوحة البستانى ؟ أم يبقى العمل مبتورا بعد ذهاب ذلك العميد وذلك العماد ؟ إننى أغتنم فرصة هذا الموقف الجليل ، بين أيدى الغطاريف البهاليل ، من سروات وادى النيل ، لإبداء أمنية لا تزال تتردد بين جوانحى ، وهى أن يوفقنا الله ويمن علينا بوجود القادرين على التمام .

وما أكثر نظائر البستانى من المؤلفين والمترجمين والباحثين ! قد كانت لهم من معونة رياض قوة فوق قوتهم اقتحموا بها غمار النبوغ والشهرة ، وكانوا له خير معوان على النهضة بالأمة وترقية المعارف .

ومالى وللأشخاص وها هو بين أيدينا أثر عظيم ينطق ليلا ونهارا بفضل ذلك الراحل العظيم ؟ وأعنى به دار الكتب الخديوية . فان يكن فقيد العلم المغفور له على باشا مبارك هو الذى جمع شتاتها ولمّ شعثها ، فقد كان لرياض يد طائلة فى ضمان مستقبلها وتوفير خيراتها المعنوية إلى ماشاء الله . فهو الذى أقنع سيد النيل ورب النيل بايقاف الأطيان الدارّة عليها وقدرها ١٨٠٠ فدان ، وناب عن مولاه الكريم فى تحرير حجة الإيقاف . ولذلك سيبقى اسمه مقرونا باسمها ، مادام العلم مرفوع المنار ! وهاهى الآن قد أصبحت قطوفها دانية ، ووفودها متزاحمة فى الليل وفى النهار ، بفضل عناية الوزارة السعيدية الحاضرة ، فى ظل ولىّ الأمر فى مصر حفيد « محمد على » ولاخر الجالس على تخت المعز [1] وبنيه ، القابض

(١) الخليفة الفاطمى الذى أسس القاهرة والجامع الازهر

على صو لحان صلاح الدين[١] وذراريه، الوارث لتاج الظاهر[٢] والناصر[٣]، المستوى على عرش المؤيد[٤] والأشرف[٥] مولانا المقر الأشرف (الحاج عباس حلمى الثانى) محيي الآداب العربية أدام الله توفيقه لتجديد المكارم ورفع شأن الأمة المصرية !

ماذا أبدى وماذا أعيد ؟ أفتحدّثنى نفسى باستقصاء مناقب رياض فى هذا الموقف الرهيب، الذى هو أشبه بجلسة الخطيب ؟

حاشا لله ! ما أريد ذلك ولن يريده غيرى، ولكنّ الواجب وذكرى الجميل يحتمان علينا، معاشر أعضاء المجمع العلمىّ المصرىّ والجمعية الجغرافية الخديوية، أن نشيّع هذا الراحل عنا الباقى حبه فى قلوبنا بالاعتراف جملةً بتفضله علينا ومؤازرته لنا فى جميع أعمالنا، ولكى ننوب بهذا الرمز الصغير عن جمهور الخادمين للعلم والأدب والتاريخ .

ففى رضوان الله يا رياض! فقد فارقت أمّة راضية، وجاورت ربا راضيا .

إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا .

أحمد زكى

---

(١) رأس الدولة الايوبية ومنشىء المدارس الكثيرة بمصر والشام

(٢) السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الشهير بفتوحاته وبما أسسه من دور الكتب الكثيرة بمصر والشام

(٣) هو الناصر محمد بن قلاوون أجل سلاطين الديار المصرية الذى شمل برعايته أهل الفنون والعلوم والذى ظهرت فى عهده أكبر الموسوعات العربية

(٤) هو السلطان الملك المؤيد المحمودى الذى كان مغرما باقتناء نفائس المصنفات ومن أكبر أنصار العلم وقد اشتهر بالاطلاع الواسع حتى لقبه التاريخ بشيخ

(٥) هو السلطان الذى ازدانت القاهرة فى عصره بأجمل الآثار الفنية البديعة فى الصناعات العربية على اختلاف أنواعها حتى أصبحت القاهرة فى عصره كعبة يحج إليها العلماء وجنة زاهرة لأرباب الفنون الجميلة

وهـــذا نص الخطبة التى ألقيت على قبر الفقيد
فى حفلة الاربعين
(وفيها خلاصة على تاريخ حيـاته)

رجل **كرياض** ، والرجال قليل ، فى بلد كمصر ، عهده بالحرية قريب ؛

رجل **كرياض** ، يفاخر به النيل ، ويُحَقُّ له الفخر ، فى هذا العصر الجديد ؛

رجل **كرياض** ، نبغ فى عهد إسماعيل ، وآمتاز فى ذلك الدور ، بالشكيمة والأثر الحميد ؛

رجل **كرياض** ، خدم هذا الجيل ، إلى أن دخل القبر ، وهو قدوة الشبان والشِّيب ؛

رجل مثل **رياض** ، وأرجو أن يكون **رياض** مثالا لكل رجل ؛

لايكفينا أن نرى قومه وأهله ، يقيمون له حفلة تتلوها الأخرى وتعززها الثالثة ؛ بل ينبغى لهـذه الأمة الناهضة أن يتضافر أفرادها على تخليـد ذكراه ، ليكون من موته له ولها حياة !

ترعرعنا وقد آسترعى أسمـاعنا ، ثلاثة من أسمى الأسمـا ، مختلفة فى العنصر ولعلها قد كانت متفقة فى المرمى . ثم نشأنا فشاهدنا منها مثلثا متساوى الأضلاع : رؤوسه **نوبار** و**شريف** و**رياض** . هذا ترتيبهم بحسب الأقدمية ، ولكننى أعتقد أن هؤلاء الساسة الثلاثة سواسية فى الأهمية . نعم فلقد آستداروا بمثلثهم حتى جعلوه كالحلقـة المفرغة لايُدرى أين طرفاها ، وإن كان أولهـم متمصرا ، والثـانى نصف مصرىّ ، وأما الأخير الذى تبكيه اليوم هـذه الأمة ، فكان مصريا بكل معنى الكلمـة : من حيث المنبت والمشرب ، من حيث الـنزعة والغاية ، من حيث الأمانىّ والأحلام .

كان أحدهم إذا ورد ذكره على اللسان أو طرقت سيرته الآذان، آنساق الفهم إلى ذكر صاحبيه بطريق التلازم فى الأذهان .

وما زال الثلاثة يتعاقبون بلا مزاحم على دست الوزارة ، منذ تأسيسها على النظام الجديد، ستّ عشرة سنة ونصف سنة على التقريب (أى منذ سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٩٥ = ١٢٩٥ إلى ١٣١٣ هجرية). ولم تنقطع هذه السلسلة التى تكاد تكون متواصلة إلا بفترتين مزدوجتين ، كانت الفوضى فيهما قاب قوسين .

فأما الفترة الأُولى فكانت فى سنة ١٢٩٦ = ١٨٧٩ حيث تقلّد المغفور له محمد توفيق باشا (وهو ولى العهد أوّلا ثم وهو خديو مصر ثانيا) رياسة الوزارة مرتين ، لم يزد عمر الواحدة منهما عن شهر واحد (من ١٠ مارس الى ٨ أبريل ثم من ١٨ أغسطس الى ٢١ سبتمبر) .

وأما الفترة الثانية فقد ظهرت فيها وزارتان متواليتان ، لم يزد مجموع عمرهما عن السبعة الشهور . وكان ذلك فى خلال الخلل والفساد، الذى ساد فى البلاد، على عهد الحوادث المشؤومة المعلومة (من ٤ فبراير الى ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٢) .

ولكنّ الصيت مابرح ملازما لأولئك الصِّيدِ، فلم تكن البلاد تعرف غير آسم شريف ونوبار ورياض ؛ وكذلك كان الشأن فيما وراء البحار . وآنفردوا أيضا دون سائر رجالات السياسة فى مصر بإحراز رتبة المشيرية العظمى ، وإن كان رياض قد آمتاز على زميليه بالنشان المجيدى المرصع .

كان نوبار أوّل الثلاثة وآخرهم فى تقلد رياسة الوزارة . فقد تولاها ثلاث مرات : الأولى فى خلال سنة ١٢٩٥ = ١٨٧٨ الى أوائل مارس سنة ١٨٧٩ = ربيع الأول ١٢٩٦ ، والثانية من ١٠ يناير سنة ١٨٨٤ = ١٣٠٢ إلى ٩ يونيو

سنة ١٨٨٨ = ١٣٠٦ ، والثالثة من ١٦ أبريل سنة ١٨٩٤ = ١٣١١ إلى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥ = ١٣١٣ . وقد بلغ مجموع مدته فى رياسة الوزارة ٧٧ شهرا بالتقريب .

وأما الثانى فهو شريف . تقلد رياسة الوزارة أربع مرات : الأولى من ٧ أبريل سنة ١٨٧٩ = ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ إلى أن تنازل إسماعيل ، والثانية متممة للأولى (من ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ = ١٤ رجب سنة ١٢٩٦ الى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩) = ٥ شوّال سنة ١٢٩٦ ، والثالثة (من ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ الى ٤ فبراير سنة ١٨٨٢) ، والرابعة من ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٢ الى ٦ يناير سنة ١٨٨٤ . وفى ذلك العهد طلّق الحكومة بتاتاً بمناسبة انفصال السودان عن مصر . ولم يرجع للوزارة بعد ذلك إلى أن وافاه القَدَر المحتوم . وأعظم وجوه الشبه بينه وبين نوبار أنه لم يدخل فى الوزارة إلا بصفة رئيس . وأما الفروق فكثيرة . وقد بلغت مدته فيها ٢٨ شهرا ونصف شهر بالتقريب .

أما رياض فقد انتظم فى سلك وزارة نوبار الأولى سنة ١٨٧٧ . ثم تقلد رياسة الوزارة للمرة الأولى فى السنة التالية ، ولم تأنف نفسه من الاندماج فى زمرة الوزارة الأخيرة التى ألفها شريف (وإن كان انفصل منها بعد شهرين) . ولكنه لم يرض بالاشتراك فى الوزارتين اللتين ألفهما بعد ذلك نوبار . إستلم رياض زمام الرياسة وبلغت مدته فى الوزارة ١١ شهرا ، وفى الرياسة ٧٤ شهرا .

على هذا المنوال ، بقى الثلاثة الرجال ، يخلف بعضها بعضا فى الهيمنة على شؤون مصر ، الى أن روّعنا الزمان ، بتهدم أحد الاركان ، فتداعى ذلك المثلث عند مادرج إلى ربه الوزير الشريف . ذهب بعد أن أبلى البلاء الحسن ، فى خدمة الامة والوطن . ذهب بعد أن أفاد وما استفاد . بلى إنه استفاد أكبر منقبة تصبو إليها

النفوس العالية : فانه شاد لنفسه تمثالا معنويا فى فؤاد البلاد . وسيبقى اسمه الشريف كتميمة يحتفظ بها كل مصرى صميم ، مادام النيل يجرى من ينابيعه إلى الأشاتيم .

ثم هوى بعده ذلك النجم السيّار الذى كان مصباحا مصاحبا لنوبار . وللرجل حسنات كبار ، ولكنه بقدر ماأفاد قد استفاد ، وربما زاد . لذلك عرف آله وذووه حقه عليهم ، فصنعوا له تمثالا أجلسته البلدية فى احدى الحدائق العمومية بثغر الاسكندرية .

وأما شيخ الوزراء رياض ، فكان فينا البقية الصالحة ، والقدوة النافعة ، وهو الآنَ فى قبره ونحن من حوله ، فعسانا نستفيد من موته كما كانت مصر قريرة العين به فى أيام حوله وطوله .

من هو رياض ؟

سؤالٌ إذا وجّهتَه الى أهل هذا الجيل ، من أبناء النيل ، ولو ألقيتَه على الأجانب ، فى المشارق والمغارب ، لأجمع الكلّ بلسان واحد : إن رياضا هو والعبقرىّ شئ واحد . وذلك لأن الملأ أجمعين لا يعلمون عن رياض إلا أنه السيد وأنه الكامل من كل شىء . ولعمرى إن ذلك هو عين اليقين ، فقد مضى على هذا العبقرىّ ثلث قرن وهو منقطع القرين !

ولكن كيف وصل إلى هذه السيادة ؟

ـ بالجدّ والإقدام ، وبالترفُّع عن الدنايا ظاهرًا وباطنًا ، وبالإخلاص فى خدمة الأُمَّة والوطن .

ولو أننا أردنا أن نتعرّف السبب فى تلك الجلالة التى كانت له فى النفوس ، وفى ذلك السلطان الذى امتلك به القلوب ، لرأينا الأمر بسيطا وطبيعيا ،

ولعلمنا أنه فى مقدور كلّ إنسانٍ — اذا صدق فى الإرادة وصدق فى العمل — أن يجارى هذا الذى رحل . وكل من سار على الدرب وصل .

فذلك السرّ مما يستوجب الإذاعة ، فى هذه الساعة . فقد دخل الرجل فى القبر وبقيت أعماله نبراسا لطلاب البراعة بين الجماعة .

ذلك أن رياضا تدرّج فى سُلَّم الوظائف والأعمال ، من أدناها الى أقصاها . فكان عيلما عليما بكل الشؤون ، ضليعا مضطلعا بجميع الأمور .

دخل الفتى رياض افندى فى خدمة الحكومة المصرية بوظيفة مبيِّض فى مجلس العموم بديوان المالية فى ١١ صفر سنة ١٢٦٤ بماهية قدرها ١٤٥ قرشا صحيحا . ولاحت عليه مخايل النجابة وملامح الاستعداد ، فارتفعت ماهيته بعد ستة شهور إلى ١٩٣ قرشا صحيحا و ١٣ بارة . وكانت هذه الزيادة فى نظير تكليفه بعمل آخر وهو قيد الخلاصات . ثم صدر الأمر بالغاء ذلك المجلس فخرج فتانا من الخدمة فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٦٥ ، ولكنه بعد شهرين ونصف توصل للدخول فى المعية السنية للتبييض والقيد بماهيته المذكورة . فلم يأت الثانى من ربيع الاول سنة ١٢٦٦ حتى انفصل من الخدمة وعاد إلى الفراغ ، ولكن يوما واحدا . لأنه انتظم فى اليوم الثالث فى سلك عساكر الموسيقى برتبة الملازم . فقام بهذه الخدمة الجديدة خير قيام جعله أهلا لنيل رتبة اليوزباشى بعد شهرين اثنين . ثم ارتقى إلى رتبة الصاغ قول ، ثم إلى رتبة البكباشى فى بحر سنتين . كلُّ ذلك فى خدمة الموسيقى العسكرية .

فلما كانت سنة ١٢٦٨ انتظم فى سلك رجال المعية السنية ، برتبة القائممقام وبصفة ياور بمعية عباس الأوّل . وهنالك ارتقى (٥ صفر سنة ١٢٦٩) إلى رتبة الميرالاى وبوظيفة مهردار لوالى مصر المشار اليه . وكان ذلك كله فى مدة لاتزيد عن أربع سنوات وسبعة شهور .

ومن ذلك العهد دخل الفتى رياض بك فى الزمرة التى كانت تُعرف فى تلك الايام باسم «الذوات الكرام» وبلغت ماهيته ٣٤٨٠ قرشا صحيحا .

رأى فيه عباس الأول مايؤهّله لخدمة الأهالى، فأسند اليه مديرية الجيزة واطفيح (١١ صفر سنة ١٢٧٠). وبعد سنتين تدرّج به فى سلم الصعود بالصعيد، فانتقل مأمورًا لادارة الفيوم بمديرية بنى سويف، ثم مديرا لقنا بماهية قدرها خمسون جنيها فى الشهر. وعاد بعد ذلك الى العاصمة حيث أُسنِدت اليه وَكالة المرور والسكة بمصلحة السكة الحديد. ثم تحرّك منها (سنة ١٢٧٤) بصفة مأمورلإدارة نصف أول روضة البحرين، أعنى الدلتا الحقيقية المحصورة بين فرعَىْ النيل شرقا وغربا والبحر الابيض المتوسط شمالا. وهى اليوم عبارة عن مديريتَىْ المنوفية والغربية. والنصف الاول المذكور كان فى اصطلاح ذلك الوقت عبارة عما نسميه الآن بمديرية المنوفية. ثم صدرتْ الإرادة السنية بجعله وكيلا لهذه المديرية، وبلغت ماهيته ٧٥ جنيها. فبقى فى هذه الوظيفة لغاية ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٧٧. وحينئذ قلب له الدهر ظهر المِجَنّ، وتبدّلت تلك المنن بالمحن. فبدأ رياض يعرف أن الأيام دول، وأن صفوها لابدّ له من الكَدَر. فقد صدرت فى ذلك اليوم إرادة سنية أكتفى بنقل صورتها بالحرف، بغير تعليق عليها ولا شرح، لأنها كمرآة لأُسلوب الإنشاء وروح النظام فى ذلك العصر. وهذا نصها :

« بحسب ماعاينا بأثناء المرور فى هذه المرّة من مدير روضة البحرين ووكيلها »
« وناظر قلم دعاويها من الإهمال فى رؤية المصالح والدعاوى وتسهيل اللوازم »
« وخلافه مما يغاير إرادتنا ويوجب تغيير خاطرنا فقد رفعتُ ذلك المدير »
« الذى هوشا كرباشا وعينت قاسم باشا بدله وعيناك وكيلا بدل رياض بك »

« وعينا مصطفى فرهاد بك ناظر قلم دعاوى . فيلزم بوصول أمرنا هـذا إليكم »
« تتوجهوا لمحل مأموريتكم وتبادروا فى رؤية المصالح والأمور المختصة بوظيفتكم »
« وأنتم وفرهاد بك تبذلوا جهدكم فى أداء مايتوجب عليكم وتتركوا التصدّى »
« لما لايعنيكم . لأن الفضول ، مما يمنع القبول . والحذر ثم الحذر ، من سوء »
« السلوك فمن بغيره اعتبر ، وينصف وتبصر ، فقد أخذ فى أسباب نجاته ، »
« وتشبث بعلو درجاته »

« حاشية . أما اذا رأيتم أن المسؤلية والجزاء الذى كان ترتب على ما وقع »
« منكم قبلا من الامر المغاير لطبعنا قليلا وعدتم لمثل ذلك فالرأى لكم فيه »
« فلزم التحشية لتأكيد الإيقاظ والتنبيه . »

ولكن مدة هذا الغضب لم تطل فقد حظى رياض بالرضا ثانية بعد شهور قليلة . فإن سعيدا والى مصر آستعاده فى معيته «لخدمة الكتابة» باذن تاريخه ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٧ ، حتى جاءت سنة ١٢٧٩ فأنعم عليه برتبة المير ميران وجعل ماهيته مائة جنيه مصرىّ فى الشهر ، بعد أن كان منذ خمسة عشر عاما مبيضا لايتقاضى فى الشهر جنيها واحدا ونصف جنيه .

حتى إذا كانت سنة ١٢٨١ صدر الأمر العالى بتعيين رياض باشا عضوا فى مجلس الأحكام . وهذا المجلس يماثل مانسميه الآن بمحكمة النقض والإبرام . ثم أُحيلت إلى عهدته نظارة « أمور خاصة خديوى » ، أعنى الخاصة الخديوية حسب العرف المألوف فى أيامنا هـذه ، بسبب السيادة التى بدأت تعود إلى اللغة العربية .

وانتقل رياض باشا إلى وظيفة مهردار إلى ١١ شوّال سنة ١٢٨٤ .

فغضب عليه إسماعيل وأصدر للمالية إرادة سنية مختصرة باللغة التركية هذه ترجمتها الرسمية :

« بحسب الإيجاب قدصار رفت رياض باشا مهودارنا سابقا من معيتنا »
« فلأجل اجراء ايجاب ذلك بالمالية لزم الإشعار . »

ولا عجب فى هذا الغضب . فمواقف رياض مع إسماعيل أشهر من نار على عَلَم . ولكن رياض باشا إن كان يرفض الخدمة لأقل سبب ، فانّ مولاه كان فى حاجة ماسّة إلى مثله . فلذلك اضْطُرَّ إسماعيل لإعادته إلى حظيرته ، وأسند له فى معيته وظيفة كانت تسمى « خزينه دار » . فجعل صاحب الترجمة عنوانها « خازن خديوى » ترجيحا للغة العربية التى كانت قد أخذت تنازع التركية وتستردّ منها مكانتها فى الرجحان . وكان ذلك فى سنة ١٢٨٦ . ولكن ماهيته نزلتْ إلى ٦٠ جنيها . ولم يكن صاحبنا من عُبَّاد المال وإنما كانت كل أمانيه ترمى إلى خدمة الأوطان بغير نظر إلى قيمة الأجر الذى يتناوله فى آخر الشهر .

وفى سنة ١٢٨٧ نال رتبة الروم ايلى بكلر بكى ؛ وزادت ماهيته الى ٧٥ جنيها (وهو مرتب الرتبة المذكورة) ، وأرسله إسماعيل فى مهمة سياسية الى مقرّ السلطنة بالقُسطنطينيَّة .

فلما عاد منها صدر الأمر العالى بتعيينه مستشارا لرياسة المجلس المخصوص (وهو الذى خلفه مجلس النظار فى النظام الحديث للحكومة المصرية إلى هذا العهد الحاضر) . وصار مرتبه ١٢٥ جنيها . ومن هذه الوظيفة ارتقى إلى وظيفة مدير المدارس والأوقاف (٢٢ رجب سنة ١٢٩٠) ؛ وانضمت إليه وظيفة مستشار الداخلية ورياسة المجلس الحسبىّ أيضا فى السنة التالية . ثم صار ناظرا للخارجية فالزراعة (وكانت هذه النظارة قد أُنشئت فى سنة ١٢٩٢) فالحقانية (ومن ذلك العهد

أضيفت على ماهيته مصاريف للضيافات والجمعيات وقدرها ١٢٥ جنيها فى الشهر فبلغ مجموع ما يتناوله ٢٥٠ جنيها) فالمدارس فالتجارة والزراعة (وصارت ماهيته ٢٥٠ جنيها فى الشهر) . وكانت هذه الدواوين تابعة للمعية مباشرةً ، على غير النظام المعهود الآن فى مجلس النظار ، فإنه لم يتأسس إلا فى سنة ١٨٧٨ ميلادية .

وهنا مجال لاستطرادٍ لا أراه خارجا عن الموضوع . لأن رياض باشا هو عبارة عن صحيفة كبيرة من تاريخ مصر الحديث ، بل قد كانت له اليد الطولى والباع الكبرى فى تحويل نظام الإدارة المصرية ووضع كثير من القواعد التى جرى عليها نظام البلاد الجديد .

كانت إدارة الحكومة فى مصر منوطة بالخديو رأسًا . وإنما يعاونه (إن صح التعبير) جماعة من أرباب المناصب العالية كالذوات الكرام ، على اصطلاح تلك الأيام . وقد وضعهم الخديو على رؤوس الدواوين ومرجع كل واحد منهم إليه مباشرةً وبصفة فردية أى بغير اجتماع وبلا تضامن . وعند حلول الخطوب ، كان الخديو يستشير هيئة تتألف من أولئك الرؤساء ومن غيرهم . وتلك الهيئة هى التى كانت تسمى بالمجلس المخصوص . وفى هذه التسمية بيان كافٍ لمعرفة المسمّى ومقدار سلطته الفعلية . فكان هـذا المجلس يتألف من نظار الدواوين ورؤساء بعض المصالح الكبيرة ومن بعض أعضاء آخرين يكونون فيه بمثابة وزراءَ بلا مساند : « Ministres sans portefeuille » كما كان الحال إلى عهـد قريب فى بعض بلاد أوروبا وفى الدولة العلية العثمانية .

وكان رياض باشا فى جملة أولئك « الذوات الكرام » بصفة ناظر للحقانية (سنة ١٨٧٦ = ١٢٩٣ هجرية)

وربما كان من المفيد بيان هذه الهيئة الرسمية بالتفصيل

ناظر الماليه	اسماعيل صدّيق
ناظر الحقانيه	مصطفى رياض
ناظر الخارجيه	... ...
ناظر التجارة والزراعه	اسماعيل أيوب
رئيس مجلس الأحكام	محمد ثابت
رئيس شورى النوّاب	عبد الله عزت
سردار عسكريه	... ...
رئيس مجلس حسبى مصر	أحمد رشيد
محافظ مصر	عمر لطفى
محافظ اسكندريه	حسن راسم
ناظر داخليه	محمد توفيق ـ أى ولىّ العهد
ناظر جهاديه	حسين كامل ـ شقيقه
ناظر بحريه	... ...
ناظر الأشغال	ابراهيم
ناظر المعارف والأوقاف	منصور يحيي
مستشار الأشغال	على مبارك

أما الأعضاء الذين بلامسند فكانوا أربعة، وهم: شاهين كنج، وعبداللطيف، وجعفر صادق، والسيد أبو بكر راتب.

وما زالت الحال تجرى على هذا المنوال إلى أن تداخلت أوروبا فى شؤوننا الداخلية لضمان الديون التى جرّها التبذير والإسراف. فرأى إسماعيل أن الأزمة التى تورّط فيها العرش لا دواء لها إلا بالتنازل عن سلطة الفرد، فأصدر باللغة

الفرنسية فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ (غرة رمضان سنة ١٢٩٠) أمرا عاليا إلى نوبار باشا بتشكيل مجلس النظار . ولما كان هذا الأمر الكريم هو الأساس الجوهرىّ والقاعدة الأولى للنظام الحديث ، فقد رأيت من الواجب ذكر مقدّمته وخاتمته فى هذا المقام ، نقلاً عن ترجمته العربية الرسمية القديمة . وما ذلك إلا لأن رياض باشا كان له اشتراكٌ مهمٌ فى وضع هـذا الأساس ، ولأنه تولى مقاليد نظارة الداخلية فى هذه الهيئة الجديدة .

قال إسماعيل :

« إننى أطلتُ الفكر وأمعنتُ النظر فى التغييرات التى حصلتْ فى أحوالنـا »
« الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات الأحوال الأخيرة وأردتُ فى وقت »
« مباشرتكم لمأمورية تشكيل هيئة النظارة الجديدة التى فوضتُ أمرها اليكم أن »
« أؤكد لكم ماتوجه قصدى إليه وثبت عزمى عليـه من إصـلاح الادارة »
« وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى إدارات ممالك أوروبا »

« وأريد عوضا عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية »
« سلطة يكون لها إدارة عامّة على المصالح تعادلها قوّة موازنة من مجلس النظار »
« بمعنى أنى أروم القيام من الآن فصاعدا باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه »

« وعلى هـذا الترتيب أرى أن إجراء الاصلاحات التى نبهت عليها يستلزم »
« أن تكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا فان ذلك أمر لازم »
« لابد منه »

« يجب على مجلس النظار أن يتفاوض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر »
« ويرجح رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل فيكون حينئذ صدور قراراته »

« على حسب الأغلبية و بتصديق عليها أقرّر الرأى الذى تكون عليه الأغلبية »

« ... ... »

« ... ... »

« ينعقد مجلس النظار تحت رياستكم لأنى فوّضت هذا التنظيم الجديد إلى »
« عهدتكم وجعلت مسؤوليته عليكم وإنى أرى أنّ تشكيل هيئة نظارة حائزة »
« لهذه الخصوصيات ليس مخالفا لعوائدنا وأخلاقنا ولا لآرائنا وأفكارنا بل »
« موافقا لأحكام الشريعة الغرّاء و بتعميم ترتيب محاكم الحقانية يكون فيها »
« الكفاية لحاجات هيئتنا الاجتماعية والمساعدة على تتميم مقاصدنا الحقيقية »
« ونياتنا الخيرية »

« وإنى معتمد عليك فى إجراء الإصلاحات التى صممت عليها مؤملا أن »
« تكفل للبلاد جميع التأمينات التى لها الحق فى انتظارها والحصول عليها من »
« حكومتنا » اه

وما دُمنا قد جرّنا الكلام إلى طَرْق هذا الموضوع، فإنى أستميح العفو من السامعين بذكر مقدّمة الأمر الأول الذى صدر فى ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ لشريف باشا بتشكيل الوزارة على إثر المشاكل المالية والدسائس الأهلية والأجنبية التى وقعت فى البلاد .

قال إسماعيل :

« إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب علىّ أن »
« أتبع رأى الأمة وأقومَ بأداء مايليق بها من جميع الأوجه الشرعية ولكن لما »
« نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غايةُ الاسف من »
« أن ذلك السير كان على غير رضاء الملة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب »

« ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك فى غاية الهدو »
« والسكون ... ... قد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الإرادة الصادرة »
« فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء »
« أهليين مصريين يتبعون فى سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الارادة المذكورة »
« وأن يتحفظوا على مأموريتهم كلّ التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسؤلية لدى »
« مجلس الأمة الذى سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريته بوجه كاف »
« للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها ... هذا ولعلمى »
« بحسن إخلاصكم بخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المأمورية »
« بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع لتتم بكم المقاصد »
« المؤدّية الى التمدن والعمارية التى أريد أن يقترن بها اسمى . »

هذا هو مبدأ النظام الذى أخذ يتدرّج فى طريق التقدم والارتقاء إلى الآن . وقد تخلله انتكاس ظاهرىّ أو حقيقىّ ولكنه لم يدم زمانا طويلا . وذلك أن الاضطرابات التى اقترنت بأواخر حكم اسماعيل وباسمه أوجبت تنحيته عن العرش وقيام ولده الخديو محمد توفيق . فاستعفى شريف كما هى السُّنَّة الواجبة فى مثل هذه الأحوال . فأصدر الخديو الجديد فى ٣٠ شعبان سنة ١٢٩٦ أمره بإلغاء رياسة مجلس النظار وبأنّ كل ناظر يكون مسؤولا عن جميع الأمور المختصة بنظارته . وهذا نصّ الإرادة بالحرف الواحد :

« بما أن مجلس النظار صار لغوه وإبطاله وتقرّر لدينا أن كل منستر يكون »
« مسؤولا عن الأشغال المنوطة بادارة نظارته وأن المواد التى كان جاريا تقديمها »
« ورؤيتها بذلك المجلس هذه من الآن فصاعدا يكون النظر فيها بمجلس يجرى »
« انعقاده بمعيتنا من النظار تحت رياستنا وكل من النظار اذا وجد عنده »

« أشياء من هـذا القبيل يستصحب معـه أوراقها ومعلوماتها عند حضوره »
« الى المجلس لأجل رؤيتها وحصول المداولة عنها حسب اللازم فعلى هـذا »
« وما هو معلوم لدينـا فيكم من كمال اللياقة والأهليـة قد عيناكم ناظرا على »
« ديوان ... ... »

« وأصدرنا أمرنا هذا لكم للمعلومية والمبادرة فى مباشرة وإدارة مأموريتكم »
« هذه بكمال الاعتناء والاهتمام على الوجه المرغوب كما هو مطلوبنـا » اه

هذه هى النكسة الارتجاعية التى قالت عنها الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) فى ذلك العهد فى وصف الخديو توفيق مانصه :

« فلله درّه من متفرّس يضع الأمور فى مواضعها ولا سيما الأمراء ذوو العفة »
« والاستقامة والمقام الرفيع فان وضعهم فى المأموريات الجسيمة دليـل على »
« صـلاح الأمور وتسهيل كل معسور وقد انشرح بذلك خواطر الجميع »
« فنسأل الله أن يزيل عنـا كل ضيم ويتم الامور بالخير . »

ولكنّ صناديد مصر الثلاثة لم يكونوا على هذا الرأى . ولذلك لم يشترك أحدٌ منهم فى هذه الوزارة الرجعية التى لم تعش سوى أربعة وثلاثين يوما ، ولم تعمل فى الحقيقة شيأ . وذلك لأن الخديو استدعى رياضا وطلب منه تشكيل الوزارة المتضامنة على ذلك الأساس الذى شرحناه .

وهـذه هى أوّل مرّة تقلّد فيها رياض باشا رياسة الوزارة (فى ٢١ ستمبر سـنة ١٨٧٩) . وقد كتب الخديو إلى الفقيد الذى نحن مجتمعون الآن على قبره مانصه :

عزيزى رياض باشا

« إنى لما أخذت أخيرا زمام رياسة مجلس النظار بيدى لم يخطر بفكرى »
« إعادة الحكومة الشخصية وإنما كان ذلك بالنظر لاحتياجات الوقت مع »
« الرغبة فى تقريب وتأييد العلاقة المحكمة بينى وبين أعضاء هيئة النظار ولم يخطر »
« ببالى أن يكون ذلك أمرا قطعيا ولا أمرا مخالفا للأصول التى اتخذتها منذ »
« أخذى بزمام الحكومة أعنى الحكم بالاشتراك مع نظارى وبواسطتهم وهذه »
« الأصول من مقتضى الأمر الصادر بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ »
« ولا يتعلق لى أن لاتكون مرعية الإجراء على الدوام . »

« ولا يخفى على سعادتكم ما أنطوى عليه ضميرى فى هذا الخصوص »
« كما لايخفى عليكم أفكارى المتعلقة بأمر الاستقامة والتقدم والنظام والاقتصاد »
« التى أتمنى نجاحها وانتشارها فى ادارة المملكة وإنى لمتيقن أنكم مشتركون »
« معنا فى هذه الأفكار والتصورات وأنكم عازمون عزما قويا على بذل مجهودكم »
« فى تنفيذ هذه الأفكار بالتمام وإنى لأعرف درجة إخلاصكم وحسن طويتكم »
« بالنسبة لخدمة الوطن ومراعاة قوانينه ونظاماته مع رغبتكم فى بذل المجهود »
« بحفظ حقوقه ولهذا فانى مع ثقتى وحسن يقينى فيكم أكلفكم بتشكيل هيئة »
« نظارة جديدة وأحلت رياسة مجلس النظار على عهدتكم حافظا لنفسى حق »
« الحضور فى جلساته وتولى رياسته عند الاقتضاء وإنى لمتيقن أنكم ستعتنون »
« كل الاعتناء فى انتخاب رفقائكم النظار ثم ترفع أسماؤهم لدينا لأصدق على »
« توظيفهم . وبعد أن تشكل هيئة النظارة تأخذ فى الأشغال على مقتضى مانص »
« عليه فى الأمر الصادر المؤرخ فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ فانه لايزال »
« مرعى الاجراء فى جميع أحكامه التى لا يعتريها تغيير بأمرنا هذا . وإن »

« المحافظين والمديرين ومأمورى الضبطيات ووكلاء النظارات وكتاب أسرارها »
« ومفتشى الأقاليم ومديرى الادارات المهمة لا يكون تنصيبهم ولا عزلهم الا »
« بعد المداولة فيه بمجلس النظار والتصديق عليه من لدنّا وأما باقى الموظفين »
« فيكون تنصيبهم وعزلهم بمقتضى أوامرَ تصدر رأسا من نُظَّارهم الذين هم »
« تابعون لهم . ولا يخفى عليكم أننا فى شاغل من المسائل المهمة وقد دعتنى »
« الحاجة الى أن أذكركم من جملة تلك المسائل بأهمية ترتيب ميزانية »
« الايرادات والمصروفات السنوية بطريقة منتظمة و بالترتيب النهائى المختص »
« بالتحصيل الذى هو شديد الارتباط بالميزانية و بتنظيم حالة المالية المتأخرة »
« المتعلقة بهاجميع المنافع المستدعية لحسن عنايتنا ومعظم هممنا وإنى على »
« يقين بأنى أعتمد عليكم فى حل هذه المسائل وما شاكلها من الأمور المهمة »
« ولخبرتكم التامة وحبكم للوطن لاتهملون فى شئ يعود على القطر بالإصلاح »
« الحقيق الذى هو متمنّى الجميع ويجب على كل منا أن يبذل غاية جهده »
« فى تمهيد سبله . »

وقد تقلد رياض باشا نظارة الداخلية أيضا . ومازال يتقلدها بعد ذلك ، كلمادعاه صاحب الأمر لرياسة مجلس النظار . وفى بعض الأحايين كان يضمّ إليها نظارتَىْ المالية والمعارف العمومية ، منفردتين أومجتمعتين معا . وماذلك إلا أنه كان أكثر من غيره خبرة ودراية بحاجات القطر الداخلية . وهذه أعماله وحياته كلها شاهدة له بأنه الفلاح وابن الفلاح وأبو الفلاح .

نحن فى مقامٍ لايكفى فيه الكلام بطريق الإبهام . بل ينبغى لمثلنا فى حقّ مثله أن يؤيد القول بالبرهان . ولما كان عمله الجليل كبيرا ولايسعنا الإسهاب فى الإتيان عليه ، رأيت أن أتوسط فى الأمر وأشير بنهاية الايجاز إلى بعض أياديه على بلاده وأهليه .

فرياض هو الذى قوّى دعائم مجلس النظار وجعل له سلطة فعلية حقيقية فى إدارة شؤون البلاد. وبهذه الوسيلة توصل إلى خدمة الأمة، خدمةً تحفظها له القلوب وسيتحدّث بها التاريخ.

فأوّل عمل انصرفت اليه همته هو النظر بعين الحكمة إلى مصدر الثروة فى مصر، وهى أرضها. فأبطل الإنعام بالأطيان، لأنها ملك الأمة ولايجوز لأحدٍ أن يتصرّف فيها بالهبة. وقد أوقف تنفيذ الأوامر التى كانت صدرت بهذا المعنى، مما لم يكن قد دخل فى حيز الفعل. (٢٣ شوّال سنة ١٢٩٦ — ٩ اكتوبر سنة ١٨٧٩)

وأستصدر فى سنة ١٨٩٤ أمرا عاليا بأن أرباب المعاشات والباشبوزوق الذين أُعطيَتْ اليهم اطيانٌ لتعيُّشهم على شرط إعادتها لجانب الحكومة عند وفاة من يُتوفّى منهم عن غير زوجة ولا أولاد يكون له ولورثته حقوق الملكية التامة فى الأطيان المذكورة، ولو لم يدفع المقابلة عنها، وأن الأطيان المعطاة للعربان ولم تدفع عنها المقابلة تكون ملكا صريحا للمعطاة اليهم الأصليين أو لورثتهم.

وهو الذى وضع القواعد لبيع أملاك الميرى للأهالى. (سنة ١٢٩٧ = ١٨٨٠)

وأنا أسرد أعماله فى الحكومة أثناء وزاراته المتعدّدة مسرودة بحسب الموضوع لابحسب التواريخ.

١ — الثروة العقارية

رياض باشا هو الذى وضع أوّل لائحة للآلات الرافعة المُعَدّة لرىّ الأراضى وتجفيفها (٥ رجب سنة ١٢٩٧ = ١٣ يونيو سنة ١٨٨٠)، ثم أستصدر قانونا للترع والجسور (سنة ١٨٩٠).

ثم أستصدر قانونا للسكك الزراعية (سنة ١٨٩٠)، وهى التى أفادت البلاد والمزارعين أيّما فائدة. ولها الآن شأن كبير فى تسهيل المواصلات ونقل المحصولات وتوطيد دعائم الثروة الأهلية فى سائر أرجاء القطر.

ومما يجب ذكره فى هذا المقام، أنه قرأ بنفسه فى مجلس النظار هذا القانون مادّةً فمادّةً حتى أتى على الأربعين بغير ملل ولا كلل مع التمعن والتّفكر فى كل حكم من أحكامه .

ونظم المعاملات فى حلقات الأقطان (غاية شوّال سنة ١٢٩٦ = ١٦ اكتوبر سنة ١٨٧٩) . وهاهى الشكوى عامّة الآن بسبب رجوعها إلى الفوضى القديمة .

ومن مزايا هذا الفلاح على الفلاح، أنه وضع طريقة ثابتة لتحصيل ضرائب الأطيان فى أوقات معينة . ورفع الى الخديو تقريرا يبين له المضارّ التى تحيق بالفلاح من جرّاء اضطراره لوضع رقبته فى قبضة المرابين . لعنهم الله !

وأين هذه المزية من تلك التى واصل السعى فيها حتى جعلها من الحقائق الملموسة باليد لكلّ إنسان إلى الآن، وأعنى بذلك تسوية الأهالى بالأجانب فى دفع الأموال الأميرية . فالأمر العالى المشهور باسم دكريتو ٢٥ مارس سنة ١٨٨٠ (١٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٧) هو من حسنات ابن الفلاح . ولو كنا فى بلاد أخرى لسماه الناس قانون رياض .

٢ — أملاك مصر فى الخارج

نظر الرجل إلى مسألة الأملاك الكائنة فى الآستانة، وهى المعروفة بالساحلخانة . فسوّاها فى مصلحة مصر ولفائدة الأمة . وقد كان بعض أعضاء العائلة الخديوية ينازعون فى امتلاكها دون الحكومة المصرية . (٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٩٦ = ٢ دسمبر سنة ١٨٧٩) .

٣ — باطن الارض

نظر أبو الفلاح إلى أرض أجداده . فرأى ان يضمّ إلى العناية بها و بزرعها عنايةً أُخرى بما فى بطونها من كنوز الآ ثار القديمة ، سواء كانت هيروغليفية أوعربية . أراد أن يستبق للبلاد ذخارها الفنىّ فقرر « بأن كل شئ يتعلق بعلم الآثار القديمة مثل المومية والحفر والنقش القديم و بوجه الاجمال كافة الأشياء التى نوعها من نوع المحفوظات بالأنتيكه خانة ببولاق ممنوع تصديرها بالكلية . وكذلك الأشياء التى للمساجد والمعابد والأضرحة أو المأخوذة منها ، تصديرها ممنوعٌ بالكلية» . (١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٧ = ٢٠ ابريل سنة ١٨٨٠)

ثم أدخل فى حكمها الآثار القديمة « صناعية العرب » . (٣ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ = ٧ مارس سنة ١٨٧١)

٤ — المواصلات

من الحسنات التى تذكر لوزارته الأولى إنشاء خط البوستة بين أسيوط وأسوان مرتين فى الاسبوع على الوابورات البخارية . وقد كان مابعد أسيوط من أرض الفراعنة محروما من المواصلة مع سائر القطر اللهم إلا بطريق القوافل أوالمراكب الشراعية . (١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٦ = ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩)

٥ — عمّال الحكومة والأمن العام

جعل رياض عبرة الماهيات فى جميع أنواع الخدمة الملكية بالوظائف لابالرتب وقال : « إن الرتب إنما هى عنوان شرف وفخار » . (٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٦ = ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٧٩)

وقرر بدل السفرية ومصاريف الانتقال لموظفى الحكومة حتى لا يستمرّوا عالة على الأهالى فى أثناء قيامهم بالمأموريات التى تُعهد اليهم . (٢٥ ديسمبر سنة ١٢٩٦ - ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٩)

وسعى لدى الدول إلى أن رضيتْ بعدم جواز الحجز على ماهياتهم أو التنازل عنها . وقد كان أغلبهم - إن لم نقل جلهم - أسيرا فى قبضة المرابين . ففك رياض رقبتهم وحفظ كرامتهم .

وكان قد سبق له أنه استصدر أمرا عاليا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بأن ريع الأراضى الأميرية الموقوفة على أعضاء العائلة الخديوية وذريتهم ، المعطاة لهم بدلا عن مرتباتهم التى كانت لهم فى السابق ، لا يجوز التنازل عنه ولا حجزه إلا لتحصيل الأموال الاميرية .

وكانت همته على الدوام منصرفة لتأييد سلطة الموظفين ، ولاسيما المحافظين والمديرين ، ليتمكنوا من تنفيذ مقاصده فى تعميم الأمن وترويج التجارة وتحسين الحالة الاقتصادية فى أكناف البلاد .

واستصدر أمرا عاليا (١٣ أغسطس سنة ١٨٨٨) بأن كل مُحافظ وكل مُدير هو النائب الوحيد عن هيئة الحكومة فى المحافظة أو المديرية الموكولة إلى عهدته ، وأن جميع الموظفين الموجودين فى المحافظات أو المديريات يجب عليهم الإذعان لسلطة المحافظ أو المدير أيّةً كانت النظارة التابع لها هؤلاء الموظفون .

وكان فى جميع أدوار حياته العمومية يعمل على تأييد نفوذ المحافظين والمديرين ، لأنهم عماد الأمن العام والركن الحقيق لكل نظام .

هذا وقد طهر البلاد من الأشقياء الذين كانوا يعيثون فى الأرض فسادا حتى هدأ روع القطر وٱستقر الأمن العام فى نصابه وٱنقطع دابر تلك العصابات المسلحة التى لا يزال ذكرها فى الأذهان . وحينئذ ألغى الأحكام الٱستثنائية التى ٱضْطُرَّت الحكومة (قبله وفى أيامه) لتقريرها ، وحلّ تلك اللجنات المعروفة بقومسيونات الأشقياء . (الامر العالى الصادر فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٩)

٦ - الحالة الماليـــــة

هو الذى سوّى الحالة المالية فى سنة ١٨٧٩ . وقد كانت على شفا جُرُفٍ هارٍ بسبب ما تقدّم هذه المدّة من ضروب الإعسار .

وفى عهده صدر قانون التصفية . وتصفية كل حساب - مهما كان فيها - فهى أفضل من بقاء الٱضطراب وٱستمرار الٱختلال .

و رياض باشا هو أوّل من وضع قواعد الميزانية على المنهاج المنتظم الذى لا يزال العمل به مستمرّا الآن مع اختلاف طفيف فى بعض التفاصيل والجزئيات . وكان ذلك فى يناير سنة ١٨٨٠ .

فسارت الأمور بتدبيرٍ حكيم وعلى أسلوب رشيد إلى أن تسنّى لصاحب الترجمة إصلاح الأحوال المالية إصلاحا عظيما . فبعد أن كانت مصر لا تعرِف غير العجز بدأت تستطيع رفع رأسها . فكان صاحبنا أوّل من أسس الٱحتياطىّ فى ميزانيتها بعد أن بذل لدى الدول المساعى تِلْوَ المساعى . فأصبحت مصر ولها ٱحتياطىّ قدره مليونان من الجنيهات . (الأمر العالى الصادر فى ١٢ يوليو سنة ١٨٨٨)

٧ ـ تخفيف الضرائب وإلغاء بعض العوائد والرسوم والمكوس

إنتظام الشؤون المالية ساعد صاحب الترجمة منذ سنة ١٨٨٨ على تخفيف كثير من التكاليف عن عاتق الأهلين . فألغىٰ ضريبة الملح التى كانت مفروضة على رؤوس جميع السكان . وقدّم فى ذلك تقريرا طويلا هو من الآيات التى ينبغى مراجعتها ، لمعرفة مقدار غَيْرة الرجل على أفراد أمته ورفع الضيم عنهم . (٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٩)

والغى « المقابلة » مع حفظ حقوق الأهالى فيما نالوه بسبب دفعهم بعض الأقساط منها . (٦ يناير سنة ١٨٨٠)

ثم نظر إلى بعض العوائد والمكوس التى كانت تثقل كاهل الأهالى . فقدّم تقريرا وافيا فى ١٧ مايو سنة ١٨٨٠ يقول فيه للخديو توفيق : « إن جملةً من » « العوائد لا يستحق البحث فيها . فإن قاعدة ضرائب بعضها سيئة ، وطريقة » « تحصيلها أسوأ ، وكلاهما مخالف المخالفة الكلية لشؤون العدالة والانصاف » « التى هى من شيم حكومتكم السنية ؛ والبعض الآخر من تلك العوائد ، مع » « كونه مضايقا للمموّلين ومعطلا لتقدّم التجارة والصنائع ، فلا يحصل منه لجهة » « الخزينة إلا مبالغ واهية لاتكفى فى غالب الأحيان لمصاريف تحصيلها . »

وبهذه الوسيلة توصل إلى إلغاء العوائد الشخصية والويركو [1] وعوائد التمغة على المصنوعات البلدية .

وأرى من الواجب الإشارة إلى ما قاله فى هذا الصدد : « إن الأجانب لايدفعون شيئا من هذه العوائد ، فلا يتيسر للصانع ابن الوطن أن يجارى أو يبارى بصناعته الأوروباويين فى أشغالهم . »

وكان فى جملة ماألغاه عوائد الدخولية فى النواحى أى القرى والكفور ، وعوائد معاصر الزيوت ، وعوائد المساكن فى القرى والكفور ، (وكانت الحكومة تحصلها

---

(١) قد كان أنزله من ٥٠ قرشا الى ٢٠ قرشا لمساعدة أرباب الطوائف قليلة الكسب .

باسم تنظيم) « مع أن المصاريف على التنظيم فى تلك النواحى هى عديمة الوجود تقريبا . » كما قال .

وقال فى ختام التقرير الذى قدمه بهذا المعنى: « إن حسن التحصيل فى أموال الأطيان يعوّض النقص الظاهر فى الإيرادات التى يجرى عليها الإلغاء البادئ ذكرها ، بل ربما يزيد عن التعويض . »

ولو أردتُ أن أذكر هذه العوائد بالتفصيل لضاق السامعون ذرعا ولعجبوا من أن أجدادهم الأقربين كانوا يتحملون هذه الأعباء التى أصبح أبناؤهم وهى لاتخطر على أحلامهم حتى فى المنام. ولكننى أشير إلى الأمر العالى الذى صدر بها لمن يريد التوسع فى معرفة اليد التى أسداها رياض باشا إلى قومه وبلده . هنالك يرى الطالب المعجبات المطربات ، بل المحزنات المخزيات . فتاريخ هذا الأمر العالى هو ١٧ يناير سنة ١٨٨٠ . وكان رياض باشا فى هذا العهد مهيمنا على نظارة المالية ، بصفة مؤقتة .

ثم ألغى عوائد الأغنام والشعارى ، وعوائد الدخولية على البذور الزيتية وعلى الزيوت المستخرجة منها . ثم خفض عوائد الدخولية على حيوانات الذبيح والمواشى . (من أول يناير سنة ١٨٩١) .

هذا ولقد كانت مصر قبل سنة ١٨٨٠ تدفع ضريبة خصوصية على زرع الدخان والتمباك ، مقدارها تسعة جنيهات . فأنزلها رياض باشا إلى ستة ، ثم أنزلها إلى جنيهين ونصف جنيه فقط . ثم رأى أن المصلحة المالية تقضى بمنع زراعة الدخان بالكلية ، لقاءَ زيادة الرسوم الجمركية على الوارد من الخارج . وله فى ذلك تقرير بليغٌ ، مؤيَّدٌ بالحُجج والبراهين . وألغى الرسوم التى كان مشايخ البلاد يدفعونها عند تقريرهم فى الشياخة . (٢١ ذى الحجة سنة ١٢٩٧ – ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠) . ثم

أعفاهم، هم والعمد وأولادهما، من الخدمة العسكرية فى نظير الواجبات الكثيرة التى يقومون بها لمصلحة الأمة والحكومة .

وألغى الرسوم التى كان أهل الاسكندرية يدفعونها لأجل نزح «الأدبخانات» وقدرها عشرون قرشا فى نظير الكشف الطبى وعشرون قرشا برسم قيدية الشرح على العرضحال الذى يقدّمه الطالب لمصلحة الصحة (دكريتو ١٧ محرم سنة ١٢٩٨ — ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٠) .

ولكن ذلك كلّه، مجموعا الى بعضه بعضا، لايوازى عُشر معشار المنقبة الكبرى والمفخرة العظمى التى طوّق بها ذلك الفلاح عُنُق كل فلاح . وأعنى بها سعيه فى إلغاء العونة فى سنة ١٨٨٩ . وله فى ذلك تقريرٌ ضافٍ وافٍ، فضلا عن مواقفه المعدودة فى الجمعية العمومية وخطبه الطنانة الرنانة التى ألقاها ارتجالا فى جلساتها، مما يحاكى صنيع أكبر الوزراء فى أعظم مجالس النواب بديار أَوْرُبَّة . ولو أردتُ أن أسرد شيئا من دررها على الأسماع لاَضْطُرِرْتُ إلى الإتيان عليها برُمَّتها من أوّلها إلى آخرها . فليراجعها من شاء فى محاضر الجمعية العمومية .

٩ — المحاكم الشرعية

وجّه رياض نظره إلى معاملات الناس فى أحوالهم الشخصية، فوضع نظاما كافلا لحسن سير المحاكم الشرعية، على قدر ما وصلت اليه يد الإمكان فى ذلك الزمان (٩ رجب سنة ١٢٩٧ — ١٧ يونيو سنة ١٨٨٠) . فهو فى الحقيقة أول مصلح لهذا النوع من المحاكم التى تعدّدت أنواعها وأصنافها فى مصر، على خلاف النظام المعقول الذى يتمتع به الجمهور فى سائر بلاد الدنيا .

١٠ — المعاملات التجارية

أشار رياض بوجوب العمل بالطريقة المترية فى الموازين والمكاييل : وذلك «نظرا للتغييرات التى طرأت مع توالى الأيام على الموازين والمكاييل المصرية ولما هناك من تعدّد واختلاف الموازين المستعملة فى أنحاء القطر المصرى والفروق الموجودة بينها ، ونظرًا لأن معاملات الناس مع بعضهم بعضا يجب أن تكون مؤسسة على موازين ومكاييل معلومة ومعينة بالضبط والدقة » . (انظر الامر العالى الصادر فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٩١)

١١ — القرعة العسكرية

فى أيام رياض صدر قانون القرعة العسكرية (٢٣ شعبان سنة ١٢٩٧ = ٣١ يوليو سنة ١٨٨٠) . ولم يرض الرجل بنشر قانونٍ ثانٍ للأحكام العسكرية بصفة رسمية .

١٢ — بيت المال

نظّم مصلحة بيت المال ، بعد أن كانت الفوضىٰ ضاربة فيها أطنابها . (أنظر تقريره للخديو فى ١٤ شوّال سنة ١٢٩٧ = ١٩ ستمبر سنة ١٨٨٠) . وفيه يقول: «لما أن علم مجلس النظار مما أبديناه له أن مصلحة بيت المال لم تكن منتظمة وأن إيراداتها لم تفِ بمصروفاتها مع كرور الايام ، رأى أن وجود ديوان عموم لبيت المال بمدينة القاهرة يوجب مشقة على الناس وكلفة لامعنى لها فألغاه ووزّع أقلامه على المديريات والمحافظات» . (سنة ١٨٩٠)

١٣ — الصحة العمومية

صدرت فى وزارته الاولى نظامات محكمة لسير الصحة العمومية و الصحة البحرية على الوجه الشافى . وهو أوّل من استصدر أمرا عاليا بجعل تلقيح الجُدَرِىّ إلزاميا فى مصر . (١٠ يوليو سنة ١٨٩٠)

١٤ — إنشاء بعض مصالح متنوّعة

ألغى رياض ذلك النظام القديم السقيم، إن صح لنا أن نطلق عليه اسم نظام. وهو الذى كان معروفا فى المديريات باسم قلم الدعاوى. ورتّب أقلام القضايا التى ظهرت ثمرتها، لأنها نفعت الحكومة فى كثير من المواطن وردّتها عن التورّط فى امورٍ كثيرةٍ كانت تعود عليها بالخسائر، ولا تزال تَهديها فى كثير من الأحوال إلى محجة الرشد وجادّة الصواب (١٦ اكتوبر سنة ١٨٨١).

وكانت لرياض يدٌ طُولىٰ فى تأسيس القومسيون البلدى بمدينة الاسكندرية، وقد صدر قانونه فى عهد وزارته التى قبل الأخيرة. (سنة ١٨٩٠)

١٥ — الأعمال الانسانية

كانت له فيها اليد الطُولىٰ فى حياته الخصوصية وفى حياته العمومية. ولا حاجة للإطناب فى هذا الباب، لأنه من قبيل تحصيل الحاصل. وإنما يجب أن نقول إنه كان يغتنم فرصة المواسم والأعياد، فيلتمس العفو من سيّد البلاد عن بعض المحبوسين الملكيين والعسكريين الذين كانوا يستحقّون الشفقة والرأفة لأىّ سبب من الأسباب.

وهو الذى سعى فى العفو عن كثير من المجرمين السياسيين، نذكر منهم الإمام الشيخ محمدا عبده، رحمة الله عليه.

١٦ — المعارف العمومية

هذا بابٌ طويلٌ لا يمكننى أن أوفيه بعض حقه فى هذا المقام، ولكننى أكتفى بالإشارة إلى أمرين فقط، وأترك الباقى لفرصة أخرىٰ إنْ سَنَحَتْ.

أوّلا — كان رياض باشا يستعين دائما فى إدارة شؤون المعارف العمومية بشيخ المتعلمين وأبى المتأدبين، المرحوم المبرور على مبارك باشا، أو يتولى هو

زمامها بنفسه . وقد سعى مع صاحبه حتى توصل لإيقاف نحو الألفى فدان على دار الكتب الخديوية .

ثانيا — كان رياض وصاحبه أَمْيَل الناس لنشر التعليم باللغة العربية . وآثارهما باقية خالدة ، وهى فينا وفى أمثالنا محسوسة مشاهَدة . ولكن الأيام جعلت رياض يستأثر بمزية كبرى . وحسبى أن آتى هنا على نص الأمر العالى الذى آستصدره من سيدنا وولى نعمتنا الخديو عباس . أمدّ الله فى عمره ونفع الأمة به . وها هو :

نحن خديو مصر

لما كانت اللغة العربية هى لغة البلاد وكان من الواجب جعلها أساسا للتعليم فى مدارس الحكومة وتقديمها على كل لغة أخرى ؛

فبناء على ما عرضه علينا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأى مجلس النظار

أمرنا بما هو آت

المادة الاولى

يجب أن تكون بروجرامات المدارس الأميرية محتوية على أكثر ما يمكن من الموادّ لتعليم اللغة العربية حتى تتأتّى معرفتها معرفة تامة أكيدة .

المادة الثانية

لا تُعطِى نظارة المعارف العمومية شَهادة الدراسة الآبتدائية أو الثانوية أو الشّهادة النهائية من أىّ نوع كانت إلى أحد الطلاب ، مهما كانت معارفه فى الموادّ الأخرى ، إلا إذا كانت معرفته باللغة العربية مستوفاة للشرائط المنصوص عليها فى بروجرامات الحكومة الرسمية

المـادة الثالثـــة

على ناظر المعارف العمومية تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراى رأس التين فى ٨ ذى الحجة سنة ١٣١٠ (٢٢ يونيه سنة ١٨٩٣)

« عباس حلمى »

بأمر الحضرة الخديوية
رئيس مجلس النظار وناظر المعارف
رياض

أفلا يصح لنا بعد تلاوة هذا الأمر العالى أن نترحم على رياض وهذه أعماله ، وهـذه خُطَّته ، وهذا حبه للغة العربية التى تفانى فى إعلاء كلمتها من أوّل وقوفه فى ميدان السياسة والإدارة إلى آخر لحظة من حياته ؟

فنَمْ يا رياض ، نَمْ مستريح البال قرير العين ! فأُمْنيّتك قد أخذتْ تتحقق قليلا قليلا ، بفضل مولاك ومولانا العباس ، وبفضل حكومته السـعيدة الرشـيدة . فعباس هوالذى عاونك على وضع الأساس ، وهو الذى سيعاون خلفاءك فى تشييد هذا البناء ، لمجد مصر ولفخر الشرق . وان غدا لناظره قريب

يُذكّرنى رياض برجل من رجالات الأندلس ، فى اواخر القرن الثانى للهجرة . هذا الرجل كان آية فى الجمال حتى سماه الناس وعرفه التاريخ باسم الغـزال هذا إلى البراعة فى العـلم والحكمـة ، والهيام فى وديان الحقيقـة والخيال . خدم يحيى الغزال أمراء المسلمين فى ذلك العهد أجلّ خدمة ، سواء فى ذلك الشؤون الداخلية والمهام الخارجية . هذا الرجل ، طالمـا حلّ المعضلات وأجاد فى عقد المعاهـدات وذهب سـفيرا إلى ملوك النورمانديين فى الشمال و إلى ملوك الروم

بالقسطنطينية فى الشرق . وكان مع إتقانه لغة العرب وولوعه بها و براعته فيها ، يجيد كثيرا من اللغات الاجنبية ، وخدم خمسة من أمراء المسلمين إلى أن نيف على الثمانين . قال الغزال فى بعض أراجيزه :

أدركت بالمصر ملوكا أربعه وخامسا هذا الذى نحن معه

وهـذا شأنُ رياض . فقـد آشـتهر بحسن الخَلق والخُلق ، وآمتاز بحبّ العلم و بمساعدة أهليه وطالبيه ، وله القدح المعلّى فى خدمـة مصر فى الداخل وفى الخارج ، وذهب إلى بلاد الشمال و إلى القُسطنطينيَّة بمهمّاتٍ سياسـية أفاد بها بلاده وأميره ، وأتقن لسان العرب والأتراك والإفْرَنْج ، وخدم خمسـة من ملوك مصر ، وهم : عباس الاوّل وسعيد واسماعيل وتوفيق وعباس الثانى مدّ الله فى عمره . وقد مات رياض وكأنّ لسان حاله يقول :

خدمت مصراً وملوكا أربعه وخامسا هذاالذى نحن معه

أرانى أطلتُ فى المقال ، ولكن رياضا ـ كما قلتُ لكم , هو عبارة عن صحيفة كبيرة فى تاريخ مصر الحديثة . وإننى وآيمُ الله قد أغفلتُ كثيرا من مناقب الفقيد التى لاتفى بها إلا المجلدات الضخام .

ولو كان رياض فى غير هذه البلاد لأقام الناس له تمثالا ، كما أقام أهل نوبار ، لنوبار . وما هو أحق منه بهذا الأثر المادّى الذى يحدّث الأجيال بفضل الرجال , ويتحدّى الأبناء والأحفادَ على التفانى فى خدمة البلاد .

فهل يكون لهذا الصوت من صدى ، وهل فى البلد رجالٌ يجيبون الندا ، أم هل يذهب رياض هو أيضا سدى ، مثـل الغطاريف الذين سبقوه الى عالم

لردى ؟ كلا ثم كلّا إننى أمنّى النفس (والأمانىّ لذة العيش) أنّ فى السويداء رجالا وأن القوم سيتبارون كلهم عن بكْرة أبيهم فى تخليد أثر ذلك الذى وقف حياته على خدمتهم أجمعين .

فرجل كرياض ، والرجال قليل ، فى بلد كمصر ، عهده بالحرية قريب ؛
فرجل كرياض ، يفاخر به النيل ، ويُحقّ له الفخر ، فى هذا العصر الجديد ؛
فرجل كرياض ، نبغ فى عهد إسماعيل ، وامتاز فى ذلك الدور ، بالشكيمة والاثر الحميد ؛
فرجل كرياض ، خدم هذا الجيل ، الى أن دخل القبر ، وهو قدوة الشبان والشّيب ؛
رجل مثل رياض ، وأرجو أن يكون رياض مثالا لكل رجل .

لايكفينا أن نرى قومه وأهله ، يُقيمون له حفلة تتلوها الأُخرى وتعززها الثالثة ؛ بل ينبغى لهذه الأمة الناهضة أن يتضافر أفرادها على تخليد ذكراه ، ليكون من موته له ولها حياة !

أحمد زكى باشا
سكرتير مجلس النظار
ووكيل الجمعية الجغرافية الخديوية
وأحد أعضاء المجمع العلمى المصرى

I. N. 5908-1911-500 ex.

mages à la mémoire de celui qui seconda toujours nos efforts et éclaira notre route.

J'adresse aux mânes de Riaz pacha un salut suprême !

Je sollicite la Providence de le faire reposer en paix dans le sein d'Allah. Son souvenir vivra toujours dans le cœur des Egyptiens qu'il a servis jusqu'à son dernier souffle.

Ahmed Zéki Pacha.

Ali Moubarek revendique avec juste raison l'honneur d'avoir recueilli de part et d'autre les rares trésors bibliographiques qui font la gloire de cette œuvre. Riaz, lui, peut se prévaloir d'avoir réussi à assurer l'existence et la prospérité de ce foyer intellectuel. C'est lui, en effet, qui persuada le Khédive de constituer un wakf de 1.800 feddans au profit de la bibliothèque. Le nom de Riaz restera éternellement attaché à cette fondation, car il eut la rare fortune de se voir inscrire sur l'acte constitutif en qualité de mandataire de son souverain.

Tous les travailleurs, tous les esprits cultivés se rencontrent aujourd'hui dans la Bibliothèque Khédiviale, ouverte jour et nuit, grâce aux sages dispositions prises par le Ministère actuel sous l'égide de notre auguste et bien-aimé Khédive, digne petit-fils de Mohammed Aly, héritier du trône des Fatimites, du sceptre des Ayoubites, porteur de la couronne des Zaher(1), Nasser(2), Moyad(3) et Qaït Bey(4), S.A. Abbas Hilmy II, régénérateur des lettres arabes.

Que dire encore de celui qui fut Riaz pacha ? Certes, dans cette belle cérémonie officielle je ne puis me flatter d'énumérer une à une toutes les actions qui illustrèrent la longue carrière de ce grand homme.

J'ai tenu simplement, au nom de l'*Institut Egyptien* et de la *Société Khédiviale de Géographie*, à témoigner notre reconnaissance à Riaz pacha en apportant notre tribut d'hom-

---

(1) Le sultan El Zaher Beïbars, célèbre par la fondation de plusieurs bibliothèques publiques en Egypte et en Syrie.

(2) Le plus grand sultan d'Egypte, El Nasser Mohammed Qalaoun, qui protégea les arts et les sciences et sous lequel florissaient les encyclopédistes arabes les plus distingués.

(3) Le sultan bibliophile, auquel l'histoire décerna le titre de Cheikh, pour consacrer sa vaste érudition.

(4) Le Sultan Qaït Bey, qui dota la ville du Caire d'une foule de chefs-d'œuvre artistiques de tous genres.

érigée en puissance dont la voix se répercute aujourd'hui d'un bout à l'autre du pays.

Que l'on se renseigne auprès de ceux qui l'ont précédé dans la tombe, les Mohammed Abdou et les Adib Ishaq, les Ibrahim El Mouelhi, les Sélim et Bichara Takla, les Sayed Wefa Zaghloul, les Ibrahim el Laqani, les Emin Schmeïl, les Abou El Seoud, les Guirguis Milad, etc.

Si la voix de cette phalange de disparus est muette, leurs œuvres nous répondent éloquemment pour eux.

Interrogez plutôt ceux qui ont survécu, et ils sont encore nombreux, ceux-là vous renseigneront.

La sollicitude de Riaz envers les intellectuels s'est étendue aux auteurs, aux traducteurs, aux publicistes. Les noms sont trop nombreux qu'il me faudrait citer, je ferai seulement allusion à la famille Boustani. Les membres de cette maison, qui se sont illustrés dans les divers champs de la culture intellectuelle ne cessèrent de profiter des bienfaits de Riaz. Car c'est à Riaz que revient l'honneur d'avoir doté la science arabe de cette vaste compilation qu'est l'Encyclopédie *Daïrat El Maaref*, restée malheureusement inachevée au onzième tome, et qui fait la gloire de Boutros El Boustani et de ses descendants.

En passant, me sera-t-il permis d'exprimer l'espoir qu'un continuateur de Boustani trouvera un autre mécène tel que Riaz, qui lui permettra de compléter cette œuvre magistrale qui ne doit pas rester inachevée ?

Nombreux sont les traducteurs, chercheurs ou auteurs qui, grâce à l'aide efficace de Riaz, s'illustrèrent et furent ses plus utiles auxiliaires pour provoquer le réveil national.

D'ailleurs, le Caire compte parmi ses plus beaux monuments une fondation qui honorera à jamais la mémoire de Riaz : je veux parler de la Bibliothèque Khédiviale. Notre regretté

(1er janvier 1876), que Riaz prenait la parole pour inaugurer la Cour d'Appel et le Tribunal mixtes d'Alexandrie. Il prononçait à cette occasion une allocution de circonstance dans laquelle il invitait les nouveaux magistrats à coordonner leurs efforts pour le bien général, afin que l'institution qui venait de naître puisse marquer une ère nouvelle dans l'histoire judiciaire de l'Egypte.

C'est grâce à Riaz pacha, alors qu'il avait le portefeuille de l'Intérieur, en 1880, que le Gouvernement consacra à l'*Institut Egyptien* le pavillon N.O. du groupe de bâtiments dont fait partie le ministère actuel des Travaux Publics, et où nous nous réunissons encore aujourd'hui. Ce groupe de bâtiments était connu à cette époque sous le nom d'Ecole des Filles Nobles.

Par une lettre en langue française, datée du 4 février sub n° 564, il exprimait au Président de l'Institut combien il était heureux d'avoir pu ainsi être utile à ce corps savant. Avant cette époque, l'Institut avait son siège à Alexandrie. A l'occasion de son transfert, obtenu grâce au concours de Riaz pacha, une députation des membres de l'Institut se rendit au Ministère de l'Intérieur (18 janvier 1880) pour remercier leur collègue et ministre.

Rappelons à ce propos que Riaz avait été élu membre résident de l'Institut Egyptien, le 14 juin 1874.

*
* *

La sollicitude qu'accordait Riaz à la presse arabe fut grande, l'appui qu'il lui donnait, précieux. J'affirme, et personne ne saurait le contester à moins d'être terriblement ingrat, que sans Riaz la presse arabe n'aurait jamais été

L'*Institut Egyptien* et la *Société Khédiviale de Géographie* sont au nombre des institutions qui profitèrent largement de la bienveillante intervention de Riaz. Les membres de ces deux corps savants n'oublieront jamais les bienfaits dont il les a gratifiés, et conserveront toujours un souvenir reconnaissant de cette grande figure.

Riaz n'a jamais marchandé ses faveurs à ces deux assemblées, il n'a jamais épargné ses efforts pour faciliter leur expansion et leur développement.

Quoiqu'il eût de nombreuses occupations politiques et administratives, on compte dans les annales de ces deux sociétés plus d'une page glorieuse pour Riaz pacha.

Je cite un seul fait.

Dans une de nos plus belles réunions, le 5 janvier 1878, il a été le premier à saluer par un discours éloquent l'illustre voyageur Stanley, le grand héros de l'Afrique Centrale, celui qui, le premier, pénétra au cœur du Continent Noir, et ouvrit au monde civilisé les vastes régions jusque là inexplorées.

Riaz fut le premier grand homme qui salua l'illustre explorateur revenant de ces contrées inhospitalières où l'homme civilisé a moins à redouter les fauves que ses semblables plongés dans la barbarie, de ces contrées où l'on doit répéter avec le poète arabe : *Les cris perçants des loups ne m'effarouchent point, tandis que la voix d'un homme me fait désirer des ailes pour m'enfuir !*

Comme l'Orient dans la personne de Riaz a fait accueil à l'Occident dans la personne de Stanley, de même, Riaz pacha fut l'intermédiaire attitré entre les Egyptiens et les Européens, lors de la fondation des tribunaux de la réforme en Egypte.

Voici déjà trente-cinq ans moins trois jours exactement

La seconde tâche à remplir, celle qui consiste à retracer la vie de celui que vient de nous ravir la mort, à relater les différentes phases de sa noble carrière, si utile à sa patrie, cette tâche appartient désormais à l'Histoire qui trouvera dans la vie de Riaz plus d'un bel exemple à donner aux générations futures. Pour ma part, je crois avoir rempli sur la tombe du cher défunt ce pieux devoir, aussi bien que mes faibles moyens me le permettaient.

L'assistance avec l'orateur, les absents—et tous les Egyptiens sont du nombre—attestent que Riaz était un de ces hommes de génie supérieur, qui illustrèrent dans ces dernières années l'Egypte et l'Orient.

Il est incontestable que la bienfaisante action de Riaz ne s'est pas confinée dans la seule direction des affaires publiques. Il est très rare de voir réunies en un seul homme une telle foule de vertus civiques et de si belles tendances humanitaires. C'est le destin des rares privilégiés qui planent bien haut au-dessus du commun des mortels.

Comme il faisait partie de l'avant-garde des politiciens, il était en tête des réformateurs. Parmi les administrateurs il était l'un des plus éminents, en même temps qu'il était considéré à juste titre comme l'un des mieux avisés parmi les législateurs. Il avait sa place marquée au milieu des économistes et des financiers de haute envergure.

Ces nobles qualités ont distingué Riaz tout spécialement, aussi bien dans la génération passée que dans la génération actuelle.

Nous, qui sommes en quelque sorte le trait d'union entre les deux âges, nous profitons tous les jours des bienfaits que nous apporta l'œuvre immortelle de Riaz : règlements d'administration publique, régime législatif, presse arabe, industrie locale, asiles philanthropiques, cercles scientifiques et littéraires.

santes accomplies par ces grands hommes, de rendre un solennel hommage à ces bienfaiteurs de la patrie et de l'humanité.

L'hommage posthume est plus précieux et plus beau que la glorification d'un vivant. Rien n'est plus touchant que la cérémonie commémorative dans laquelle les survivants apportent à celui qui n'est plus leur tribut de gratitude et d'admiration.

Le souvenir reconnaissant, si fugitif et si peu pratiqué par l'ingratitude humaine, offre pourtant dans de telles circonstances l'inappréciable avantage de poser en exemple le grand disparu et de pousser ainsi les prédestinés à vouloir l'imiter pour s'élever comme lui au-dessus du niveau ordidinaire. Cet entraînement est d'autant plus sensible si, selon la règle générale, le futur grand homme est un *self made man*.

*
* *

En se réunissant aujourd'hui en séance solennelle, les membres des deux corps savants de l'Egypte, l'*Institut Egyptien* et la *Société Khédiviale de Géographie* ont voulu rendre un solennel hommage à la mémoire de Riaz Pacha, dont la mort fut un deuil national et officiel.

Nous accomplissons en même temps le devoir de gratitude auquel je faisais allusion tout à l'heure, en acquittant dans cette séance commémorative notre dette de reconnaissance envers le grand disparu, amèrement pleuré par les fils de la vieille Egypte.

Riaz Pacha réservait à nos deux assemblées une sollicitude particulière, comme il ne cessait d'encourager par sa bienveillance la science et les vertus civiques.

*

A l'heureux pays qui les a vu naître, ces hommes illustres apportent de précieux éléments de progrès. Ils donnent aux humains hésitants vers leur but de perfection morale et matérielle, des leçons lumineuses d'énergie intelligente. Ils montrent la vérité si elle est méconnue, indiquent le droit chemin parmi les fausses routes et prévoient les nécessités avant qu'elles ne s'imposent.

Plus une nation compte de grands hommes, plus sa place est enviable parmi les autres nations qu'elle domine. En généralisant, nous pouvons dire que chaque fois que l'histoire enregistre l'existence d'un grand nombre d'hommes illustres sur la surface de la terre, c'est un immense pas fait par l'humanité dans sa marche ascendante vers la civilisation idéale.

L'humanité n'est-elle pas redevable, en effet, à un petit nombre de grands hommes des immenses progrès accomplis dans les domaines multiples de la morale, de l'industrie, de la science et de l'art, sources du bien-être général et de la vie plus facile et plus haute ? C'est la semence d'idées déposée par eux dans les champs de l'intelligence que nous voyons lever aujourd'hui et dont nous récolterons demain les bienfaits.

Comme nous faisons jaillir de corps inanimés l'énergie électrique qui s'y trouve cachée, nous pouvons révéler à quelques âmes privilégiées, s'ignorant elles-mêmes, les qualités supérieures qu'elles recèlent et en faire jaillir l'étincelle créatrice.

Retraçons la vie des hommes illustres, apprenons aux intelligences qui s'ignorent quelle ligne de conduite a mené ces demi-dieux vers la gloire, et les prédestinés verront s'éclairer leur route. Exaltés par ces exemples, ils voudront les égaler, et les surpasseront peut-être.

Permettons aussi à ceux qui profitent des œuvres bienfai-

UN MOT SUR RIAZ PACHA [1]

HOMME D'ÉTAT EGYPTIEN

Les grands hommes sont et resteront toujours des exemples vivants qui entraîneront l'humanité dans sa course vers l'idéal.

La philosophie, l'éloquence, la bravoure, la science, l'imagination créatrice, la sage administration de la fortune publique, le commandement des armées, la direction des affaires de l'Etat, sont autant de manifestations de l'idéal humain, que l'on trouve en général dans toutes intelligences où leur défaut d'ampleur risque de les faire passer inaperçues.

Mais chez les hommes vraiment grands, ces nobles qualités prennent de telles proportions, qu'elles deviennent alors, pour ainsi dire, tangibles à la masse même du peuple. C'est ainsi que l'humanité entière exalte le philosophe, l'écrivain, le héros, le savant, l'inventeur, l'économiste, l'homme d'Etat, le général, dont l'éclatante valeur s'impose à tous.

On voit, sous toutes les latitudes et à toutes les époques, surgir ces personnalités puissantes qui dépassent le niveau commun.

---

(1) Discours prononcé en arabe dans la séance solennelle consacrée à la commémoration de Riaz pacha par l'Institut Egyptien et la Société Khédiviale de Géographie, le mercredi 27 décembre 1911, à 10 heures du matin.

UN MOT

SUR

RIAZ PACHA

HOMME D'ÉTAT EGYPTIEN

SUIVI D'UNE COURTE NOTICE BIOGRAPHIQUE EN ARABE

PAR

AHMED ZÉKI PACHA

Secrétaire du Conseil des Ministres
Vice-Président de la Société Khédiviale de Géographie,
Membre de l'Institut Egyptien.

وما ضرَّنى أنْ قال أخطأتَ جاهلٌ
إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

LE CAIRE
IMPRIMERIE NATIONALE
1911

RIAZ PACHA
Homme d'Etat Egyptien
Mort le 17 Juin 1911
à Alexandrie

DATE DUE

J. Lib.
1 FEB 1980

J. Lib.
1 JUN 1983

923.2:M991kA:c.1
زكي ،احمد
كلمة على رياض باشا وصفحة من تاري
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01052524

923.2:M991kA
زكي
كلمة على رياض باشا .

923.2
M991kA

923.2
M991kA
c.1